

موقف الأصمعي من الشعر في صدر الإسلام

د. امحمد بارش

كلية الآداب و اللغة العربية
جامعة قسنطينة 01

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موقف الأصمعي من الشعر الإسلامي لحسان بن ثابت، ودراسة الجدل الذي أثاره موقفه بينه وبين علماء اللغة والأدب والنقاد في عصره، وبيان كيف أن إشكالية "الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان"، لم تقف عند رأي واحد، حيث انقسم النقاد القدماء في آرائهم بين القائلين برأي الأصمعي والمعارضين له، وأوضح كل فريق حججه فيما ذهب إليه. وقد عد القائلون برأي الأصمعي أن تبدل شيطان شعر حسان إلى الملك أدى إلى ضعف شعره.

أما المعارضون لرأي الأصمعي، فقد احتجوا على أن أشعارا كثيرة وضعتها قريش لأسباب سياسية، ودينية، وأضافتها إلى حسان ابن ثابت وتناقلها الرواة بعلاقتها، ولم يتمكن النقاد من فرز شعر حسان، إضافة إلى استفادة حسان من البلاغة القرآنية والنبوية التي صقلت موهبته وهذبت شاعريته، كل هذه الحجج أدت إلى رفض رأي الأصمعي، ونفي ضعف الشعر الإسلامي لحسان، وقد وقفنا عند هذه الحجج والآراء جميعا بالدرس والتحليل

الكلمات المفتاحية : موقف ; الأصمعي ; الشعر ; صدر الإسلام

مقدمة:

وقف الأصمعي* من الشعر في صدر الإسلام موقفا فكريا من خلال قضيته النقدية المشهورة : " الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان"، فكان لهذه المقولة آثار جدلية قوية أثرت في مسار حركة النقد الأدبي في عصر الأصمعي وبعده، وهو ما يعكس تطور بُعد النظر النقدي لدى النقاد في القرن الثاني الهجري، حيث خطأ النقد خطوة « متطورة تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير»⁽¹⁾، وكانت هذه الإشكالية سببا قويا في إثارة الجدل النقدي حول شعر حسان بن ثابت الأنصاري (ت54هـ-674م) على مدى عصور وأجيال، حيث حركت جدلا عميقا : فكريا وفنيا بين علماء اللغة والأدب والنقد قديما وحديثا .

Abstract:

This study deals with the position of Al-Asma'i of the Islamic poetry of Hassan ibn Thabit and the study of the controversy aroused by his position with linguists and critics of his time. And to explain how the problem of "poetry if you enter the door of good because" did not hold the opinion of one, where critics were divided in their opinions among those who say All these arguments led to rejection of the author's opinion and denied the weakness of Hassan's Islamic poetry, and we held these arguments and opinions on study and analysis, and those who denigrated him, and each team explained their arguments in what had gone to him.

Those who say in the opinion of Al-Asma'i said that the demon of Hasan's poetry was turned into a king, which led to the weakness of his poetry. As for the denigrators, they protested that the many poems developed by the Quraish for political and religious reasons, and were written for Hassan Ibn Thabit and were narrated with his defects. The critics were not able to sort Hassan's poetry, in addition to benefiting Hassan from the Quranic rhetoric and that of the prophet who refined his talent and poetics. All these arguments have led to the rejection of Al-Asma'i's opinion, and have denigrated the weakness of Hassan's Islamic poetry, and we have studied all these arguments and opinions through analysis.

وقد أراد النقاد من خلال اهتمامهم بمقولة الأصمعي أن لا تقف عند رأي واحد ، فاستمر الجدل بينهم بين مؤيد ومعارض ، وسُجلت مواقفهم النقدية الجدلية في مصادر الشعر والنقد ومراجعهما . وإذا كان العلماء والنقاد القدماء قد قالوا الكثير حول هذا الموضوع ، فهل لمفهوم الأصمعي حضور في المدونة النقدية العربية القديمة ؟ وكيف تم تلقي هذا المفهوم عند النقاد ؟ وما هي مستوياته المتعددة ؟ . هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذه الدراسة .

أولا : موقف الأصمعي من شعر حسان بن ثابت:

يعد ابن قتيبة من علماء النقد القدماء الذين اهتموا بموقف الأصمعي من شعر حسان بن ثابت في كتابه "الشعر والشعراء" ، فقد ذكر مقولة الأصمعي أثناء حديثه عن حسان بن ثابت فقال: « قال الأصمعي: الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف هذا حسان (بن ثابت) فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره، وقال مرة أخرى: شعر حسان بن ثابت في الجاهلية من أجود الشعر قطع منته في الإسلام لحال النبي صلى الله عليه وسلم » (2)

ثم جاء بعده المرزباني وأثار هذه القضية في كتابه " الموشح" مع اختلاف في اللفظ: « قال الأصمعي: طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مرثي النبي - صلى الله عليه وسلم- وحمزة وجعفر- رضوان الله عليهما وغيرهم- لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل: امرئ القيس وزهير والنايعة ، من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء ، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان » (3)

وقال الأصمعي: « حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء ، فقال أبو حاتم (ت255هـ869م): تأتي له أشعار لينة ، فقال الأصمعي: تنسب إليه أشعار لا تصح عنه » (4)

انطلاقا من هذه النصوص النقدية يتضح أن « مقال الأصمعي في ضعف هذا اللون من الشعر يضيق حيناً يقتصر على رثائه، ويتسع أحيانا ليشمل كل شعره الإسلامي » (5)

وهو ما يراه الأصمعي في أن « قوام الشعر... هو تلك الجاهلية التي نشأ فيها ورسخت جذوره في أعماقها، وعاش على وصف صورها ، والتعبير عن مثلها فحين نكبت المثل الجديدة التي جاء الإسلام بها بحسان بن ثابت عن هذا الطريق المعبد ، ضعف شعره ولان وتهافت على تلك الصورة التي لاحظها النقاد المتقدمون » (6)

إلا أن حسان بن ثابت لما دخل في الإسلام وعرف أبعاده ، وقيمه ، وتشبع بلغة القرآن العظيم وجماله أسلوبه وبلاغته ، « ترك طريق الفحول من هجاء مقذع ، ومديح كاذب ، وتشبيب وفخر بالأحساب والأنساب » (7)

وحسب هذا الرأي فقد أراد حسان أن ينهج نهجا جديدا للفحولة وفق القيم الأدبية الجديدة التي فرضها العصر.

وأما قول الأصمعي: " الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في باب الخير ضعف " . فهذا القول لم يقل به أحد، ذلك أن الحكم على أن الشعر نكد بابه الشر ودخوله في باب الخير يضعفه، حكم نقدي يصعب الإقرار به، فعلى أي أساس يمكن القول: إن هذه الأحكام صحيحة ؟ . لكن على ما يبدو أن الأصمعي « يصدر مقولته من أن الشعر يحسن في حالات الغضب ومواقف الثورة وحدة الانفعال ويجعل ذلك في كلمة نكد ثم شر، هذا الكلام يخالف الحكم النقدي الصائب وهو أن قوة الشعر وأصالته أو ضعفه وزيفه ، وكذا جماله ، وتأثيره أو قبحه وهوانه ، كل ذلك إنما يرجع إلى مقدرة الشاعر وموهبته وامتلاكه لأدوات التعبير، ثم إن معاناته الصادقة التجربة ومعاشيتها، حتى يستطيع نقل انفعاله لمتلقيه... كان العامل المؤثر في النفس هاجس رحمة وتعاطف ، أو كان نزوة للقسوة وفرطا للقوة ، سواء أكان حبا أم كراهية ، إقبالا أم إعراضا، ترغيبا أم ترهيبا وأيا كان مصدره ، داخليا أو خارجيا، إن المعول عليه التأثير بهذا العامل والانفعال به ، ثم إيصال هذا الانفعال للمتلقين بالتعبير عنه تعبيراً جميلاً صادقا » (8)

وبالتالي فإن الحكم بأن الدين أو الخير، أدى كل منهما إلى ضعف شعر حسان ، فهو حكم غير صحيح لا يستقيم ولا ينسجم مع حرية قول الشعر التي كان يتمتع بها حسان ، والتي كان الرسول - صلى الله عليه وسلم- يطرب لها.

ثم إن قول الأصمعي: " هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره " ، وقوله: " شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر قطع منته في الإسلام " ، فهو يقرر بكل وضوح أن الإسلام سبب في ضعف شعر حسان، وهذا الحكم غير صائب لأن العصر الإسلامي له مقوماته الحضارية : الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية، وشعر حسان في العصر الإسلامي كان يصدر وفق هذه المقومات النوعية، وبالتالي: « فإن الشعر لا يضعف بالدين وأن ما لحق بشعر حسان يرجع إلى ما ضم إليه، وليس من درجته، كما أن القوالب الشعرية الأصيلة لم تختلف من مرحلة إلى أخرى، وأن الاختلاف انصهر في المضمون الذي صار موجها لخدمة الرسالة الجديدة»⁽⁹⁾.

كما أن متن شعر حسان لم ينقطع في الإسلام ، حيث إن أغلب شعره قاله في الإسلام ، وقال : في كل الأغراض الشعرية ، وتفنن فيها باستثناء وصف الخمر، وحكم الأصمعي هذا غير صائب ؛ حيث إن شعر حسان الإسلامي « بضاعة جديدة شقت له أسلوبا طريفا في الشعر العربي ، وكان مؤسس الشعر التاريخي الإسلامي وهنا قيمته الثانية ، حفظ لنا أسماء المعارك الجديدة بين المسلمين والمشركين ، وذكر أسماء الصحابة وأسماء أعداء الإسلام، من قتل منهم، ومن انتصر، ومن أظهر الشجاعة والصبر ومن لاذ بالفرار، فكان أشبه بشاعر الدولة الرسمي يؤرخ ويحصى يقوم بالدعوة ويناضل، فقرن الشعر بالتاريخ وجمع بين الدين والسياسة»⁽¹⁰⁾.

كل هذا كان في شعره الإسلامي، وهو ما يؤكد بأن المتن الشعري الذي ارتبط بعصره في كل الأحوال يعبر عن تجربته الشعرية الجديدة، وقد أجاد حسان في بعض الأغراض الشعرية ، التي تعكس قوة منته الشعرية وتواصله في الإسلام ؛ حيث « لم يلتزم مذاهب غيره من شعراء عصره، كزهير والنابغة والأعشى والحطيئة وغيرهم ، ولم يعمد إلى التكلف في شعره ولم يحفل بتفنيجه، بل كان يرسله كما أوحى به القرينة وحدثت به النفس، ودعت إليه الحال، وكثيرا ما اضطرت بعض المواقف الإسلامية إلى الارتجال، فلا غرابة أن تتنوع أساليبه ومعانيه، وتتباين ألفاظه، وأن تجتمع في قصائده الفخامة واللين والغريب والمألوف»⁽¹¹⁾. وعلى هذا الأساس ظهر هذا التباين للأصمعي إذ سجل ملاحظات حول شعر حسان، ووسمه بالضعف والليونة .

ومما يؤكد شاعرية حسان هو « أن شعره في الفخر على كثرتة كان مثلاً يحتذى في قوته، فقد كان حسان جاهلية وإسلاما قبل كل شيء الشاعر الفخور. جعل فخره زاده وعتاده...كما كان جيد الشعر في غزله وفي وصفه، وفي مدحه ورثائه كثير من منتخب القول»⁽¹²⁾.

أما الغرض الغالب على ديوانه جاهلية وإسلاما فهو الهجاء ، وهجاؤه في الإسلام « فمن أجود الهجاء وأقواه وأنفعه للمسلمين، وأنقعه للمشركين، وما شابه ضعف في روحه ومنهجه وبنائه ومعانيه وما شابه إلا بعض المأخذ...التي لا ترجع إلا إلى الإكثار والارتجال»⁽¹³⁾.

هذه المأخذ** - على قلتها- في بعض شعر حسان لا تسمح بأن نحكم على شعره في صدر الإسلام ، بالضعف والليونة، والركاكة، لأنه كان يقول شعره من خلال المواقف التي يتعرض لها، والتي استدعتها السرعة والارتجال في الرد على شعراء المشركين، ومدح الرسول - صلى الله عليه وسلم- والصحابة، والافتخار بانتصاراتهم، ورتاء شهداءهم .

وقد يعود موقف الأصمعي من شعر حسان إلى ربطه بتجدد القول بفكرة شياطين الشعراء، كما قال بهاء حسب الله: « إنه كان ربما لمقولة الأصمعي في شعر حسان من أنه كان قويا في الجاهلية فلما دخل في أبواب الخير ضعف ولان...ولو ربطنا بين مقولة الأصمعي واعتقاده الراسخ بفكرة شياطين الشعراء لعرفنا سبب نقده لحسان بهذه الصورة، كما يمكن أن نربطها بما عرف عن الأعشى من أنه رفض الدخول في الإسلام لمجرد أنه علم أن الإسلام يحرم الخمر، إذ، هذا ظلم للشعر قبل أن يكون توصيفا لتأثير الإسلام عليه»⁽¹⁴⁾.

وقد يكون الأمر كذلك مرتبطا بتعلق الأصمعي بغريب اللغة، كما قال سامي مكي العاني : « رأي الأصمعي الذي رده معظم من قال بضعف شعر حسان بعد الإسلام إنما ينبع من ولعه بالغريب، الذي جعله مقياسا لقوة الشعر وضعفه، وهو مقياس شخصي قد لا يوافق عليه الكثير من النقاد» (15).

ثانيا: تلقي بعض النقاد لفكرة الأصمعي :

من المؤكد أنه وقع جدال في هذه المسألة في عهد الأصمعي ، بين الأصمعي وعلماء عصره ، وأن كثيرا من علماء اللغة والنقاد لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه الأصمعي، فكانت قراءتهم وأراؤهم تتم عن مواقف إيجابية من شعر حسان بن ثابت ، وكان على رأس هؤلاء الأئمة وعلماء اللغة الذين تقاطعت آراؤهم مع إشكالية الأصمعي هم :

أبو عمرو بن العلاء*** شيخ الأصمعي الذي قال: «حسان بن ثابت أشعر أهل الحضرة» (16). وقد أكد رأيه معاصره أبو عبيدة معمر بن المثنى*** حيث قال : « أجمعت العرب... على أن أشعر أهل المدر حسان. وقال: فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي- صلى الله عليه وسلم- في أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام» (17).

هذه المواقف تكشف بوضوح عن الجدل الذي أثاره شعر حسان بن ثابت من خلال ما ذهب إليه الأصمعي، كما أن هذه المواقف تعد النواة النقدية الأولى التي خالف بها أصحابها رأي الأصمعي ، وفي هذه الآراء ما يشير إلى أن الإجماع كان قائما على الاعتراف بشاعرية حسان، ولكن يبدو أن الأصمعي هو من خرج على هذا الإجماع ، وقرر الاعتراف بما حمل من شعر على حسان أثناء تحاوره مع صديقه أبي حاتم السجستاني، حيث قال الأصمعي: « حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء، فقال أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة، فقال الأصمعي: تنسب إليه أشعار لا تصح عنه» (18).

ولعل ما يؤكد شاعرية حسان ما روي من أن قائلا قال لحسان بن ثابت: « لان شعرك في الإسلام يا أبا الحسام ، فقال للقائل: يا ابن أخي ، إن الإسلام يحجز عن الكذب أو يمنع من الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب» (19).

وقد علق القرطبي على موقف حسان هذا فقال: « يعني إن شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق » (20).

والواضح أن دلالة هذا الكلام تعطي صورة دقيقة على أن « الشاعر كان طليقا في الجاهلية يقول ما يشاء ، ويبالغ كيف شاء، لكنه مع الرسول... كان مقيدا بالتزام الواقع . وهذا معنى قوله: إن الإسلام يحجز عن الكذب، وهذا القيد الجديد الذي لم يألفه من قبل كفيلا بأن يحد من انطلاقه، وبالتالي يظهره أقل مهارة في ميدان الفن، وإن امتاز شعره بالصدق والواقعية» (21).

وعلى هذا الأساس يمكن تأويل دوافع الأصمعي بأنه طبق معايير فنية جاهلية على شعر حسان الإسلامي، وهو ما أوقعه في كثير من الحرج والانتقاد، لاسيما أن كثيرا من الأخبار الواردة تعود إلى قوة الرواية الشفوية للشعر مع كثرة الانتحال فيه. مما أدى بالعلماء إلى الاهتمام بقراءة شعر حسان، وإثارة الجدل حوله لمعرفة صحته من منحوه . كما أن اهتمام الأصمعي بمنهجه الفكري والأدبي واللغوي، الذي يعتمد على الغريب في اللغة، وقوله بفكرة شياطين الشعراء، جعلهما مقياسا لتقييم جودة الشعر وقوته، وهذا الأمر أدى به إلى عدم الفرز بين شعر حسان الصحيح والشعر الموضوع عليه، فبنى على ذلك أقوالا وأحكاما نقدية أثارت جدلا واسعا، ولم يستطع أن يحدث إجماعا فيما ذهب إليه.

ثالثا: أثر مقولة الأصمعي في الحركة النقدية العربية القديمة :

فمن الجلي أن أقوال الأصمعي في شعر حسان لم يكن لها أي تأثير في عصره ، حيث كان الجدل قائما في ذلك الوقت بينه وبين العلماء الرواة واللغويين حول شعر حسان ، وكان الإجماع قائما على الاعتراف بشاعريته في الجاهلية والإسلام ، وإنما كان لهذه " الإشكالية " تأثير بعد عصر الأصمعي ، إذ أدت إلى ردود متباينة بين مؤيد ومعارض، فرددتها كثير من العلماء والنقاد والمؤرخين والدارسين، واتضح من خلال تداولها في كتب النقد أن شعر حسان بن ثابت الأنصاري كان الأكثر اهتماما بالدرس

النقدي من طرف النقاد، كما نتج عن ذلك آراء وأحكام نقدية مازالت آثارها تتجدد في الدرس النقدي، إلى يومنا هذا.

أدى مفهوم الأصمعي لشعر حسان إلى جدل نقدي وإلى تشكيل موقفين نقديين بارزين، وردود أفعال متباينة بين القائلين برأي الأصمعي والمؤيدين له، والناقلين للبوحة والضعف عن الشعر الإسلامي لحسان بن ثابت، وقد حاول كل فريق تقديم حججه وبراهينه على صحة ما ذهب إليه، ويتضح هذا فيما يأتي :

1- حجج المؤيدين للأصمعي :

من النقاد القدماء الذين قرؤوا مقولة الأصمعي قراءة فكرية فنية ما ورد عن أبي منصور الثعالبي (ت 430هـ-961-1038م): الذي ذهب مذهب الأصمعي وحاول تعليل ضعف شعر حسان بتغيير شيطان الشعر إلى الملك فقال: « من عجائب أمر حسان أنه كان- رضي الله عنه- ، يقول الشعر في الجاهلية، فيجيد جدا، ويغير في نواصي الفحول، ويدعي أن له شيطانا يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك... فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله، ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك»⁽²²⁾.

إن النظرة النقدية إلى شيطان الشعر هي نظرة فنية جاهلية قديمة، حيث كان الاعتقاد سائدا بأن الشياطين تقول الشعر على ألسنة الشعراء، كما تحدث بذلك القرشي⁽²³⁾. ولما جاء الإسلام ولت هذه النظرة التي كان الشعر فيها مرتبطا بالخرافة، كما تغير مفهوم الشعر، حيث أصبح ملكة وموهبة .

ولهذا فإن قول الثعالبي: " ولما تبدل الشيطان الملك تراجع شعره " هو حكم نقدي غير صائب ولا يمكن الموافقة عليه أو الإقرار به، لأنه لما جاء الإسلام تغيرت النظرة إلى الشعر كما تغيرت وظيفته، حيث أصبحت الأحداث هي التي تحرك التجربة الشعرية لدى الشاعر، بالإضافة إلى ذلك توجهات الرسول - صلى الله عليه وسلم- للشعراء، وأوامره لهم بالرد على المشركين، والدعاء لحسان بمؤازرة جبريل- عليه السلام- ، له، وفي هذا روي عن عدي بن ثابت الأنصاري، أنه سمع البراء بن عازب الأنصاري يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لحسان: « اهج المشركين وأنا معك »⁽²⁴⁾. وفي رواية: « اهجهم- أو هاجهم - وجبريل معك»⁽²⁵⁾.

وفي حديث عنه - صلى الله عليه وسلم- أنه قال: « أمرت عبد الله بن رواحة، فقال وأحسن، وأمرت كعب ابن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى»⁽²⁶⁾.

والواضح في هذه الأحاديث هو الأحكام النقدية القوية التي تبرهن على صحة قوة فحولة حسان وشاعريته في هجائه للمشركين، لأن شعره نابع من إيمان صحيح، وعقيدة جديدة، ونظرة جديدة للحياة والفن، وبالتالي لا يمكن أن نتصور أن يسمع حسان هذه الأقوال والدعاء له من طرف الرسول - صلى الله عليه وسلم- ، فتضعف شاعريته ويلين قوله ويرك. وهذا ما يعزز أن شعر حسان كان منطلقه الأساسي الالتزام بالأخلاق الإسلامية والدعوة إلى ما أكدته السنة النبوية الشريفة، وهو بهذا يكون منسجما مع التعاليم الإسلامية غير منحرف عنها .

كما أنه يمكن أن نحمل مقولة الأصمعي على فهم أنها لا تعني سقوط شعر حسان أصلا ، بل دليل أن الأصمعي عده من الفحول في كتابه "فحولة الشعراء" عندما سأله تلميذه أبو حاتم السجستاني «...قلت : فحسان بن ثابت؟ قال: فحل»⁽²⁷⁾.

وهكذا يمكننا أن نعد إقرار الأصمعي نفسه بفحولة حسان دليلا على عدم وضوح مقولته عند النقاد .

2- حجج الرافضين لرأي الأصمعي :

نجد في الجانب الآخر فريقا من العلماء والنقاد القدماء الذين عارضوا الأصمعي فيما ذهب إليه . مبرزين حججه على صحة ما ذهبوا إليه، ومبينين أن سبب ضعف شعر حسان بن ثابت ولبنه يعود إلى أن كثيرا من هذا الشعر الذي يحتج به ضده قد حمل عليه إما لسبب اختلاط الرواية ، واختلاط شعره ببعض أشعار معاصريه، أو لأسباب سياسية أخرى . ويتضح هذا فيما يأتي :

أ- أدى ضعف رواية الشعر إلى اختلاط شعر حسان بن ثابت بأشعار كثيرة وضعتها عليه قريش⁽²⁸⁾. ولم يتمكن الرواة من غربلتها.

ب- يعد كلام الشعراء الإسلاميين ومن بينهم حسان، أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين، في منثورهم ومنظومهم وذلك لأخذهم بأسلوب القرآن وبلاغته⁽²⁹⁾.
هذه الحجج التف حولها العلماء والنقاد وأقروا بفحولة حسان وشاعريته، في الجاهلية والإسلام، رافضين بذلك مقولة الأصمعي، وكانت آراؤهم مستقاة من قراءتهم للشعر الإسلامي لحسان، ويأتي في مقدمتهم :

ابن سلام الجمحي: وهو من العلماء النقاد الذين نفوا اللين عن شعر حسان بن ثابت و من الذين أشادوا بشاعريته، وأثبت فحولته أثناء حديثه عن شعراء القرى العربية فقال: « المدينة أشعر القرى العربية وشعراؤها الفحول خمسة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس بن الخثيم ، وأبو قيس بن الأسلت، وأشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضت***** قريش واستنبت، وضعوا عليه أشعرا كثيرة لا تتقى»⁽³⁰⁾.

اتضح من هذا النص النقدي أن ابن سلام الجمحي كان أكثر النقاد دقة ووضوحا في تمحيصه وغربلته لشعر حسان بن ثابت، إلى جانب أنه كان معاصرا للنقاد عارفا بمقاصدهم، لهذا لما وقف على ما روي من شعر منسوب لحسان بن ثابت وبعد غربلة وتدقيق النظر في شعره من خلال نظرة موضوعية ثاقبة، خلص- إلى فرز شعر حسان الصحيح من الشعر الذي وضع عليه- إلى جملة من الأحكام النقدية فيما يخص فحولته وشاعريته، فوجدها مبنية على مقاييس موضوعية وهي: المكان، وكثرة الشعر، وجودته، أما فحولته فقد أثبتنا على أنه أشعر شعراء المدينة وبالتالي فهو أشعر من شعراء مكة، والطائف، والبحرين، في الجاهلية والإسلام، وأما شعره فقد قرر ابن سلام أن لحسان شعرا كثيرا وجيدا، كما حدد من خلال مقياس التفاوت في الشعر، بأن حسانا حمل عليه شعر كثير ما لم يحمل على أحد، إشارة منه إلى ما صنعه الرواة بشعر حسان من طرف القرشيين ، حيث قولوا حسانا ما لم يقل، كما يلمح إلى أن ظاهرة النحل بعد عصر حسان ظاهرة عامة ، وكان حسان أكبر ضحاياها ، لظروف سياسية ، ولتقني ظاهرة الانتحال .

ضف إلى ذلك ما رواه **عبد الرحمن بن خلدون** الذي فضل شعر حسان بن ثابت فقال : « إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم، فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق، ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص و...أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير، وعلقمة بن عبده ، وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر في الإتيان بمثليهما... فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفي رونقا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة»⁽³¹⁾.

الواضح أن موقف ابن خلدون يعكس قراءة واعية، وموضوعية وفنية، لدواوين شعرية كثيرة، خاصة للشعراء المذكورين في النص، فقد وازن بين جودة الأسلوب البلاغي للشعراء الجاهليين والإسلاميين، حيث اكتشف أثر البلاغة القرآنية والنبوية في أشعار بعض الصحابة: حسان بن ثابت، وبعض الشعراء التابعين: الحطيئة، وعمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والفرزدق وجريير، ونصيب، وغيلان بن عقبة ذي الرمة، ولاحظ أن شعر هؤلاء الإسلاميين أقوى وأسمى شاعرية من الناحية البلاغية من شعر شعراء الجاهلين من أصحاب المعلقات، الذين شهدوا أواخر العصر الجاهلي وبلغ شعرهم غاية من التطور والنضج والكمال الفني كطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبياني، وعلقمة بن عبده الفحل، ويظهر أن مقياس جودة الشعر عند ابن خلدون هو تفاضل شعر الإسلاميين على شعر الجاهليين، لأن الشعراء الصحابة والتابعين أدركوا الإسلام وسمعوا البلاغة القرآنية والنبوية، فأخذوا منها اللفظ الحسن، وروعة البيان وجمال الأسلوب فكان شعرهم بذلك أبهى وأجمل من حيث المعنى والمبنى، وكأني بآبن خلدون يؤكد أن ثمة حدثة مست أو مر بها الشعر العربي عن طريق هؤلاء الشعراء الصحابة والتابعين، فتجدد بذلك قاموسهم الشعري، فكان لزاما على الصحابة الشعراء مسابرة التطور الفكري والفني لأنهم

كانوا على اتصال مباشر بالتغيير الذي مس عصرهم، دينيا وفكريا ولغويا وفنيا، هذا التغيير الذي فرضه القرآن العظيم من خلال تحديثه للعصر، وتبعهم في ذلك التابعون الشعراء . ويظهر أن قول ابن خلدون: " إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين " يعكس- بكل تأكيد- قوة الشعر الإسلامي لحسان، وهو رأي يتعارض فكريا وفنيا ونقديا مع مقولة الأصمعي .

إن أقوال العلماء والنقاد قديما، المعارضين لمقولة الأصمعي ومن ذهب مذهبه ، تؤكد أن حسان بن ثابت شاعر فحل في جاهليته وإسلامه، وهو أشعر شعراء القرى، وأن ما وصف به شعره من ضعف ولين وركاكة لم يكن في شعره الصحيح، وأن شعره الإسلامي اتسم بمسحة بلاغية قرآنية ونبوية عكس من خلالها بينته الأدبية الجديدة، حيث واكب شعره التطور الفكري والأدبي والفني واللغوي في عصره. فقال شعره في كل الأغراض الشعرية فأجاد فيها وأبدع، فجاء شعره بعيدا عن المبالغة والتهويل، جانحا إلى الصدق والواقعية، بعيدا عن الخيال الكاذب فطابقت رؤيته الفنية فكرته الدينية .
بناء على الآراء النقدية المؤيدة والمعارضة للأصمعي نخلص إلى ما يلي :

1- إن مفهوم ليونة شعر حسان الإسلامي من القضايا النقدية القديمة التي أثارها الأصمعي في القرن الثاني الهجري ، نتيجة تعلقه بفكرة شياطين الشعراء، وبحته عن غريب اللغة في الشعر، حيث حاول الأصمعي تطبيق منهجه الفكري، " مقياس غريب اللغة " الذي طبقه - على شعر الأعراب "البدو"- على شعر حسان "المدني" . لهذا جاءت قراءته لشعر حسان الإسلامي قراءة معتمدة على الرواية الشفوية وحجته في ذلك غير مقنعة لأنه بنى آراءه على ما حُمل على حسان من شعر، قبل أن يهتم بديوانه محمد بن حبيب .

2- إن قول من ذهب مذهب الأصمعي في ليونة شعر حسان أكد على فكرة شياطين الشعر والشعراء التي تخلى عنها حسان بعد دخوله الإسلام .

3- وتبقى مقولة الأصمعي رأيا لم يحدث تغييرا في موازين النقد العربي، بل بقيت مقولته فكرة مثيرة للجدل بين العلماء والنقاد القدماء من أمثال: أبي عمرو بن العلاء، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي منصور الثعالبي ، ومحمد بن سلام الجمحي، وابن خلدون ، الذين حددوا من خلال قراءتهم لمقولته موقفين نقديين من شعر حسان.

4 - أما العلماء والنقاد الذين ينفون الليونة والضعف عن شعر حسان الإسلامي فقد اعتمدوا على حجج وبراهين أثبتوا من خلالها فحولة حسان في العصر الإسلامي، وبرهنوا على أن ما بحث عنه الأصمعي ووجده في الشعر الإسلامي لحسان، إنما هو في الشعر المنحول عليه وضعته قريش لأسباب سياسية، وأخرى دينية.

5-إن ما يلفت الانتباه في آراء الناقين للضعف والليونة عن شعر حسان في الإسلام، من خلال آرائهم هو تطور المستوى الفني لشعر حسان من خلال تأثره ببلاغة القرآن العظيم والبلاغة النبوية، على حد سواء، ومسايرته لتطور الحركة الفكرية والأدبية والدينية والفنية والنقدية في عصره، وهذا ما أدى بحسان إلى قول الشعر في كل الأغراض بجدية وصدق وواقعية، وبرؤية فنية تعكس روح عصره، بعيدا عن المبالغة والخيال الكاذب .

إن ما يمكن استنتاجه بالمقارنة بين الرايين والقراءتين هو أن الأصمعي إنما أصدر حكمه- حينما أصدره- في غير محله، لأنه انصب على شعر لم تثبت نسبته إلى حسان، ويبقى الشعر الذي ثبتت نسبته إلى حسان قويا في الجاهلة والإسلام .

الهوامش:

* (122-216هـ-740-828م)

1- أبو الفرج قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط1، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، 1426هـ 2006م، مقدمة المحقق ، ص 24 .

2- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: الشعر والشعراء، قدم له: حسن تميم، راجعه وأعد فهراسه: محمد عبد المنعم عربان، بيروت ، دار إحياء العلم ، دت ، ص192.

- 3- أبو عبد الله محمد بن عمران موسى المرزباني : الموشح مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، تحقيق: علي محمد البعاوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، دبت ، ص 71 .
- 4- ابن عبد البر : (على هامش الإصابة) الإصابة في معرفة الصحابة ، دار الغد العربي، دبت.ج1، ص760.
- 5- محمد الأزهر باي : حسان بن ثابت شاعر الجاهلية والإسلام ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، 2005 م ، ص91.
- 6-محمد طه الحاجري : في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية العصر الجاهلي والقرن الأول الإسلامي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1982 م ، ص 49 .
- 7-فايز ترحيني : الإسلام والشعر ، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م، ص91 .
- 8- إخلاص فخري عمارة : الإسلام والشعر دراسة موضوعية ، د.م، كلية الآداب، دبت ، ص 98- 99 .
- 9- السيد محمد الديب : أطوار الأدب في العصر الإسلامي، ط1، توزيع المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، 1419 هـ 1999م ، ص ص41-42 .
- 10- فؤاد أفرام البستاني : حسان بن ثابت ، سلسلة الروائع رقم 33، ط 6، منشورات دار الشروق، بيروت ، ص153.
- 11- محمد إبراهيم جمعة : حسان بن ثابت ، في سلسلة نوايغ الفكر العربي ، ط2، دار المعارف مصر، 1971م، ص 36.
- 12- محمد طاهر درويش: حسان بن ثابت ، ط2 ، دار المعارف بمصر، دبت ، ص 506.
- 13- المرجع نفسه ، ص507.
- **هذه المأخذ أشار إليها محمد طاهر درويش في كتابه: حسان بن ثابت، من ص496 إلى ص 501 ، وبين أن هذه المأخذ ترجع كلها إلى قواعد الشعر وموسيقاه وبعض المأخذ على لغة الشعر ، وبعض هذه العيوب أوقعه في سوء اختيار القافية .
- 14- بهاء حسب الله : الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام (تاريخ و تذوق) ، ط1، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، 2007م ، ص ص14- 15.
- 15- سامي مكي العاني : الإسلام والشعر، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، رقم 66: 1403 هـ - 1983م ص 26.
- 16- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، وقدم له : محمد عبد المنعم البري وجمعة طاهر النجار ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1415 هـ 1995م ، ج1، ص 403 .
- *** (679هـ70م - 780هـ154م)
- **** (728هـ114م - 820هـ201م)
- 17- المصدر نفسه ، ج 1، ص 403 .
- 18- المصدر نفسه ، ج 1، ص 403 .
- 19- المصدر نفسه ، ج 1، ص 403 .
- 20- المصدر نفسه ، ج 1، ص 404 .
- 21- صلاح عيد : المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البصيري ، ط1، مكتبة الآداب ، القاهرة، 1429 هـ 2008م ، ص72.
- 22- أبو منصور عبد الملك بن محمد ابن إسماعيل الثعالبي : كتاب خاص الخاص، قدم له : حسن أمين ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، د. ت ، ص 102.
- 23- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : جمهرة أشعار العرب ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1404 هـ 1984م، من ص 40 إلى ص 53 تحت عنوان "شياطين الشعراء " ، فصل القول في فكرة شياطين الشعر والشعراء .

- 24- مسلم: صحيح مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، 32/4، 1933، 1935. ورواه أحمد في المسند: 219/4، 301، 32 .
- 25- ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، دار المدني، جده ، د.ت. ج1. ص217.
- وينظر: أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق عليه: محي الدين عبد الحميد، ط1، دار الطلائع للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006 م ، ج1، ص26.
- وينظر: تاج الدين أبو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، د.ت، ج1، ص223.
- 26- مسلم : صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ، ص 48 ، و ص.59
- 27- فحولة الشعراء للأصمعي .تحقيق: ش. توري ، ط1، دار الكتاب الجديد ، 1971م ، ص 1 .
- 28- محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ج1، ص 215.
- 29 - محمد عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تقديم وتحقيق: إيهام محمد إبراهيم مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، 2006م، ص 653.
- *****تعاضهت : تشاتمت.
- 30- محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ج1، ص 215.
- 31- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، ص 653.